

الروحانية الحديثة

رد على رد

للأستاذ عبد الواحد يحيى

لو كان الأستاذ فريد بك وجدى، قد قرأ ما كتبناه منذ عشر سنين تقريباً عن موضوع «الروحانية الحديثة» فانه ما كان ليكلف نفسه عناء جمع هذه الملاحظات التى كتبها فى الجزء الماضى من هذه المجلة، لأننا أجبنا عن كل منها إجابة تامة، وأكثر إسهاباً مما يمكننا ذلك فى هذه الصفحات القلائل. ومع ذلك سنحاول هنا ثانياً، أن نحدد مركزنا فى مثل هذا الموضوع حتى لا يبقى مجال آخر لذلك الاضطراب الذى نشأ من هذا البحث.

ينبغى علينا أولاً أن لا ننكر أنه منذ ابتداء ما يسمى بالعصور الحديثة — أى منذ ثلاثة أو أربعة قرون — شك الغربيون فى كل معارف القدماء، ولكن ذلك إنما حدث لأنهم لم يدركوا تماماً معنى وطبيعة هذه المعارف، وفى نفس الوقت يظهر أنهم لم يستطيعوا أن يقبلوا أى شىء خارج عن دائرة التجارب الحسية، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك، ظهور وانتشار المادية واتساع دائرة البحث اتساعاً غير عادى فى بعض علوم خاصة تحتص بالمادة فقط. وقد كان هذا فى الغرب فحسب، أما الشرق فانه لحسن الحظ لا يزال محتفظاً للآن بمعرفته القديمة، ولم يقبل هذه الحدود المتعسفة ولم يستغ أيضاً تعاليم فرنسيس باكون أو تعاليم ديكرت، التى لا توضح شيئاً ما للعقول الشرقية النقية، أى التى لم تتأثر بسموم الأفكار الغربية.

والآن، إن فكرة محاربة المادية المنتشرة فى الغرب بواسطة العلم المادى نفسه، هى فكرة خاطئة ولا تؤدى الى نجاح ما، لأن هذه الوسائل ليس لها من قيمة إلا فى دائرة خاصة ضيقة جداً، وإذا تعدتها تكون عديمة القيمة. ويظهر أن هذه الفكرة نشأت من توهم أن مثل هذه الوسائل هى الوحيدة «الوسائل العامة» التى يمكن الاعتماد عليها فى محاربة المادية، ولكن هذه أيضاً أوهام غربية. وفى الحق ان لدينا علوماً أخرى لا تقل فى أهميتها وحقيقتها عن سابقتها، تستخدم وسائل مخالفة تمام المخالفة، غير معروفة للغربيين الحديثين

وإذا قلنا ذلك ينبغي أن نميز بين حقيقة مسألة الظواهر الشاذة التي نتحدث عنها هنا والتفسيرات المختلفة التي أعطيت لها هناك ، وإننا لنستغرب جداً أن الأستاذ فريد بك وجدى لا يزال يصر على النقطة الأولى (الظواهر) لأننا قلنا أنفسنا إن حقيقة هذه الظواهر لا تقبل الشك وإنها كانت معروفة في كل العصور وفي كل الأقطار ، فإن مثل هذه الحقائق شائعة الوجود وليست نادرة ولها من الأنواع ما يكثر عما يدركه الغربيون « الروحانيون الحديثون » أو غيرهم من الذين يحاولون دراستها .

وإننا لنأسف على أن الأستاذ فريد بك وجدى — في هذه المسألة — يعدد كثيراً من أسماء العلماء الأوربيين والأمريكيين الذين اشتركوا في هذه الدراسة كأننا ملزمون أن نقبل ما يمليه علينا هؤلاء العلماء . وإننا نأسف لأننا لا يمكننا أن نسمع للشرق أن يعتقد أنه ملزم بأن يتبع الغربيين ويتقبل تعاليمهم — وخاصة في أشياء لا تزال حقيقتها معروفة دائماً في الشرق — بينما الغرب ليس إلا باحثاً فيها فقط . وليس من حاجة إلى القول بأن الذين يبحثون عن شيء هم الذين لا يعرفون حقيقة هذا الشيء .

أضف إلى ذلك أن الأشخاص الذين ذكروا ليست قيمتهم متعادلة ، فلا يمكننا أن نضع في صف واحد رجلاً « طبعياً » تقدره حق قدره مثل وايم كروكس مع آخر نعتبه « متجراً بالعلوم » مثل كاميل فلاماريون . كما أن علينا أن نضيف أنه إذا كان بعض الرجال قد قبل « الروحانية الحديثة » فإن كثيراً منهم اختلفوا في وجهة نظرهم أو ربما صدوا أنفسهم عن أى نظرية أو تفسير . وإننا نجد بين هؤلاء الذين صاروا « روحانيين حديثين » من اشتغل لأسباب لاصلة لها بالعلم مثل سيزار لومبروزو وأولفر لودج ، فإن الأول اشتغل بها بعد موت والدته ، والثاني بعد أن قتل ابنه في الحرب . وهذا يظهر لنا أن مثل هؤلاء الرجال — بصرف النظر عن علومهم الخاصة — ضعاف العقول جداً . وينبغي أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن بعض العلماء لم يمنعهم تعليمهم من أن ينجذعوا بالظواهر المصطنعة كما حدث لوليم كروكس مع وسيطته فلورنس كوك ، وكما حدث حديثاً مع شارل ريشيه في الجزائر ؛ وحدث ذلك سهل الإدراك جداً لأن هؤلاء الأشخاص — بعيدون عن حدود علومهم — ليس لهم أية كفاءة أكثر من أى إنسان جاهل آخر . بل ربما وقعوا في الخطأ بسهولة أكثر من أى شخص آخر ، لأنهم حينذاك يبحثون في أشياء تختلف طبيعتها

وقوانينها اختلافاً تاماً عن تلك التي اعتادوها ، ولأنهم يحاولون استعمال وسائلهم العادية في هذه الأشياء بينما هذه الوسائل لم توضع لمثل ذلك مطلقاً .

وماذا تقول في ذلك التاجر النقي الذي كان يتاجر بالنبيذ « جان ماير » الذي مات منذ شهور قليلة فقط ؟ صرف هذا الرجل ملايين عديدة لأنه طمع في أن يصير يوماً ما بابا « الروحانية الحديثة » وقد أثار حرباً بلا شفقة على هؤلاء (الاخوان الدينيين) الذين تعمدوا أن يؤسسوا جمعيات ومكاتب مستقلة واضطروا أن يذعنوا لقوة المال ، وكل ذلك بالطبع تحت اسم « الاخوة - الاخاء » وقد أسس هذا الرجل نفسه في باريس معهداً « علمياً » لغرض إخضاع الباحثين الأحرار ، وتقصد بهم الذين لم يكونوا « روحانيين حديثين » وباستلامهم منه إعانات مالية لم يكونوا قادرين على أن يعارضوا شيئاً من « الروحانية الحديثة » وفي الحق أننا لنجد عاراً في اضطرارنا إلى التصريح بمثل هذه الأسماء والوقائع على صفحات هذه المجلة التي نرهبها عن ذكر مثل هذه الأعمال .

أما الأخطار التي تنتج من « الروحانية الحديثة » فأنا نؤكد الاستاذ فريد وجدي بأن الجنون والحوادث الأخرى التي تنتج منها ليست شاذة بالمرّة ، بل كثيرة الحدوث في الواقع . فاذا قال لنا إنها تحدث لغير المتعلمين أجبنا بأن هؤلاء في الواقع هم العدد الأكبر بين « الروحانيين الحديثين » في كل الاقطار . وليس لنا الحق في أن نترك هؤلاء الناس معرضين بدون وقاية من مثل هذه الاخطار التي تنشأ من انتشار الافكار الضارة ، وهم على استعداد لقبولها بدون فحص ولا روية ، بل ينبغي أن يكون العكس تماماً . ونضيف فوق ذلك أننا لا نظن مطلقاً أن التعاليم الخارجة كما تحصل في المدارس والجامعات الغربية يمكن أن تحفظ صاحبها من هذه الأخطار البتة ، وذلك لأن ما يسمون بالأشخاص « المتعلمين » أو حتى مشاهير « العلماء » يجهلون تماماً الأشياء التي تبث هنا .

أما تفسير الظواهر بواسطة مقدرة « الوسيط » نفسه ، فهذا صحيح ولكننا غير ملزمين بأن نقبله أو نرفضه ، لأن بعض الغربيين استساغوه . حدث من هذا القبيل أنهم قرروا أشياء — بدون علم منهم — لم تكن مستحثة بالمرّة بل كانت معروفة في الشرق منذ آلاف من السنين ، واسوء الحظ نرى أن الغربيين تفهموها في معنى ضيق جداً لأن معرفتهم بطبيعة الانسان الحقيقية ومقدرته ناقصة ، ولذلك لم يستطيعوا استعمال ذلك التفسير

في حالات كثيرة يناسبها تماماً ؛ ولا ينبغي أن نذكر أن تلك القوى التي لها نصيب هام في توليد هذه الظواهر هي قوى عقلية ، بل هي قوى نفسية تختلف تماماً ويتسع مدلولها ومعناها أكثر من الأولى . ولكن ينبغي أن نكرر ثانياً أنها نفسية وليست روحية بالمرّة ، مثل تلك العناصر التي يتركها الرجل بعد موته ، والتي ليست لها صلة بالجزء الخالد من كائنه . ونحن إنما نصر على هذه النقطة - لأنه ولو أننا أوضحناها سابقاً - إلا أن الأستاذ فريد بك وجدى يجعلنا نتكلم عن هذه كائنها عناصر روحانية . وإذا قلنا إن هذه ألطف وليست (من القوى التي في الجسم) بل (من تلك التي في عالم الجسم والحس) أى أنها من تلك التي تدرس بواسطة العلوم الطبية الحديثة ، فإنها تتسبب من طبيعتها النفسية ، وذلك لأن عبارة (العالم اللطيف) هي ترجمة أدبية للتعبير الهندي الذي يقابل (العالم النفسي) - هكذا يعبر عنه للمقارنه بينه وبين العالم الحسى - ولا يمكن أبداً أن يطابق العالم الروحي .

وعلى أية حال فإن القوى التي تعمل في هذه الظواهر سواء كانت تخص الوسيط نفسه أو أى حى آخر سواء ، أو كانت قوى أخرى خارجية مثل القوى السابجة ، أو قوى تنبعث من أحياء مثل الجن - هذه القوى كما ذكرنا سابقاً ، تقرب جداً من العالم الحسى ويجب أن تعتبر حقيقة من طبيعة منخطة . وفي مثل كل هذه الحالات لا تتداخل القوى العلوية مطلقاً ، ولو أن الأستاذ فريد بك وجدى يؤكد ذلك ، بينما لا يعطينا سبباً معقولاً لهذا التأكيد - ونحن مضطرون لأن ننكر ذلك إنكاراً باتاً ، وحينئذ يسقط من تلقاء نفسه كل ما يجتمعا علينا أن نصدق ظهور شخصية أحد الموتى ، ولو أنه ينبغي علينا أن لا نقرر كذب ذلك مثل ما نقرر إذا رأينا أحد القردة يقلد حركات الإنسان . وتستمد هذه القوى مظهر الحس من الأشخاص الذين تظهر بينهم ، ولذا فإن الأفكار التي تعبر عنها هذه القوى تطابق تماماً ما يجول في خاطر الأشخاص الذين يتسمعونها ، وهذا يفسر لنا لماذا تتناقض ما تسمى «الأرواح» بعضها مع بعض ؛ خذ مثلاً لذلك ، فبينما تشيع نظرية «التقمص» في فرنسا إذ لا يعترف بها في إنجلترا وأمريكا . وقد رأينا «أرواحاً» مادية في بعض الرسائل التي تسامت في هولندا منذ عشرين سنة تنكر الخلود وتثبت أن حياة الإنسان تبقى بعد الموت على الأقل أكثر لمدة ١٥٠ سنة !

والآن ينبغي أن نضيف ما يأتى : يوجد أشياء لا يمكن أن تخضع لوسائل العلوم

الغريبة الحديثة المادية، ولذا يقال عنها إنها خرافات أو من خيال القدماء بينما هي في الواقع المنفذ الذي يؤدي إلى نوع آخر من العلوم يختلف تماماً عن العلوم المادية، وهذا العلم القديم هو الذي يجدر بنا أن نسميه بحق العلم الصحيح . وإننا لا نخاف إذا قررنا وجود نفوس بالكواكب وأن لها تأثيراً فعالاً على الحوادث الأرضية . ولا نخاف أيضاً إذا اعترفنا — كما علمنا القدماء — بأن العناصر ليست أربعة بل خمسة، وأنه لا يوجد أكثر من ذلك أو أقل . وأن هذه العناصر ليس لها أية صلة بما نسميه الكيمياء الحديثة « المواد الأولية البسيطة » لأنها (أي العناصر) ليست أجساماً بل هي تلك التي تكون منها الأجسام .

لا يمكننا أن نعطي أي أهمية — إذا نظرنا إلى المعرفة الحقة — للعلوم الحديثة وهي على الدوام متغيرة غير ثابتة في تفسيراتها، فإذا سلمنا بالنتائج العملية التي تنتج من أشياء كثيرة كالكهرباء مثلاً بدون معرفة لطبيعتها فلا نسمى هذا علماً، بل يجب أن يسمى فقط صناعة . فلا نستطيع مشاركة الأستاذ فريد بك وجدى في تفاوله بنتائج البحوث الغريبة التي تظهر لنا كأنها تحاليل لا نهاية لها ظاهرية لا تقع فيها. وبما أننا نرى أن التقدم في هذه البحوث يؤدي إلى عكس كل ما هو طبيعة روحية، فالتنازل لشك في صعوبة بل واستحالة الوصول بهذه البحوث إلى فتح الطريق إلى العالم الروحاني؛ وإذا افترضنا حدوث ذلك بأي حادث كان، فإن ذلك سيكون نهاية العلم الحديث والمادية كما يفهمها الزريون ومع ذلك فمن المحتمل جداً أن يصل الزريون إلى ذلك . وأخيراً نقول: إن الشرع يجب أن يحتفظ بعلمه الخاص بأنه أصدق وأتم وأكثر انتشاراً في كل الوجود بدلاً من تضيق دائرته في عالم المادة فقط . ولسنا كما يظننا الأستاذ فريد بك وجدى: نعيش في زمن غير زمننا لأن زمننا يختلف عن زمن الغربيين . فبينما يحلم هؤلاء « بالتقدم » حتى يستيقظوا على صوت إحدى الكوارث — نعرف أن العهد الذهبي كان في الحق عند ابتداء التاريخ البشري إذ أعطيت كل المعرفة للإنسان في المبدأ ثم أخذت تحتفى عنه تدريجياً بتوالي العصور وتنتقل روياً من عالم الروح إلى عالم المادة . وأخيراً نحن نؤكد أن تلك العقول التي تأثرت بالفكر الغربي سوف لا تزال تهمنا بأن كل ما تقرره خرافات ولكن ذلك لا قيمة له من جهتنا . وإنما نحن نوجه كلامنا هذا، لا إلى مثل هؤلاء الأشخاص، بل إلى الشرقيين الحقيقيين الذين يدرون دائماً على أن يكونوا — كما هو الواجب عليهم — محافظين على الحكمة الأبدية